تعليقات فضيلة الشيخ

صالح بن فوزان الفوزان

على كتاب

إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان

للإمام ابن القيم رحمه الله

«الشريط الرابع عشر»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد،

قال المؤلف رحمه الله تعالى.

المتن: الوجه العاشر: أن غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم بك، وإن أضر ذلك بدينك ودنياك، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرتك، والرب تبارك وتعالى إنما يريدك لك، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته.

الشيخ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلم على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه، هذه مقارنة بين ما يريده الناس بعضهم من بعض وبين ما يريده الله من الإنسان، فالله جل وعلا يريدك لنفسك لا يريد أن ينتفع بك أو ينتصر بك وإنما يريدك لنفسك، أمرك بعبادته ليكرمك ويحررك من عبودية الهوى، وعبودية الشهوات وعبودية الأصنام والأشجار والأحجار إلى عبادة الله الذي خلقك ورزقك، المستحق للعبادة سبحانه وتعالى، وهذه العبادة إنما نفعها لك أنت تشكر الله بها، وهي أيضا تعود بالنفع عليك، الله يريدك لنفسك فما تعمله لله فإنه لنفسك إذا تقبله الله، وأما الله جل وعلا فلا تنفعه طاعة المطيع ولا تضره معصية العاصين، هو الغني سبحانه وتعالى.

فأوامره ونواهيه وتشريعاته كلها لمصلحة العبد ونفعها يعود على العبد عاجلا وآجلا، وأما الناس فإنهم يريدونك لأنفسهم ولو تضررت أنت، ما عليهم منك، يريدونك لأنفسهم أن تنفعهم ولو ضريت بنفسك، هذا مراد الناس منك، وجاء في الأثر أن الله سبحانه يقول: "كلٌ يريدك لنفسه وأنا أريدك لنفسك"فاعمل لنفسك.

أما الله جل وعلا فإنه لا تنفعه طاعة المطيع ولا تضره معصية العاصي لأنه الغني له مافي السماوات وما في الأرض ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ﴾ [الزمر: ٧] ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾[إبراهيم: ٨]

المتن: الوجه العاشر: أن غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم بك، وإن أضر ذلك بدينك ودنياك.

الشيخ: هم ما عليهم من ضررك ، عليهم من نفعهم هم.

المتن: فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرتك، والرب تبارك وتعالى إنما يريدك لك، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته ويريد دفع الضرر عنك، فكيف تعلق أملك ورجاءك، وخوفك بغيره.

الشيخ:نعم، إذا كان كذلك فلا تعلق رجاءك بالخلق، ولا تعلق خوفك من الخلق، علق رجاءك بالله وخوفك من الله، فإذا خفت من الله فإن الله يكفيك شر الخلق، فإذا خفت من الله وقاك الله شر الخلق، توكل عليه واعبده، ولهذا قال جل وعلا ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾ [هود: ١٢٣]

المتن: وجماع هذا أن تعلم: «أَنَّ الَخلْقَ كُلَّهُمْ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ تَعَالَى لَكَ، ولَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْكَ»

الشيخ: جماع هذا الكلام كله في حديث الرسول ﷺ في قوله لابن عباس «واعْلَمْ أَنَّ الَخلْقَ كُلَّهُمْ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ» لكن أجراه على أيديهم وإلا فهو من الله، « ولَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ» فالأمور بيد الله، فعلق قلبك بالله يكفيك كل ما أهمك ويعطيك كل ما تريد.

المتن: قال تعالى:﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التوبة: ٥١]

الشيخ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ هذا الإيمان بالقدر، لأنه لن يصيب الناس من المكاره ومن المصائب إلا بما كتبه الله لهم؛ فإذا كان كذلك فلا تخف من المخلوق ولكن خف من الله، وإن جاءك شيء من المخلوق فلأن الله قدره عليك، سلطه عليك فالأمر راجع إلى الله عز وجل ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾.

المتن: "خاتمة لهذا الباب"

لما كان الإنسان؛ بل وكل حي متحرك بالإرادة، لا ينفك عن علم وإرادة وعمل بتلك الإرادة، وله مراد مطلوب، وطريق وسبب موصل إليه، معين عليه، وتارة يكون السبب منه، وتارة من خارج منفصل عنه، وتارة منه ومن الخارج، فصار الحي مجبولا على أن يقصد شيئا ويريده، ويستعين بشيء ويعتمد عليه في حصول مراده.

والمراد قسمان:

- أحدهما: ما هو مراد لنفسه.
- والثاني: ما هو مراد لغيره.

والمستعان قسمان:

- أحدهما: ما هو مستعان بنفسه.
- والثاني: ما هو تبع له وآلة.

فهذه أربعة أمور: مراد لنفسه، ومراد لغيره، ومستعان بنفسه، ومستعان بكونه آلة وتبعا للمستعان بنفسه.

فلا بد للقلب من مطلوب يطمئن إليه، وتنتهي إليه محبته،ولا بد له من شيء يتوصل به؛ ويستعين به في حصول مطلوبة، والمستعان مدعو ومسئول، والعبادة والاستعانة كثيرا ما يتلازمان، فمن اعتمد القلب عليه في رزقه ونصره ونفعه خضع له، وذل له، وانقاد له وأحبه من هذه الجهة، وإن لم يحبه لذاته، لكن قد يغلب عليه حكم الحال حتى يحبه لذاته، وينسى مقصوده منه.

وأما من أحبه القلب وأراده وقصده فقد لا يستعين به، ويستعين بغيره عليه كمن أحب مالا أو منصبا أو امرأة، فإن علم أن محبوبة قادر على تحصيل غرضه استعان به، فاجتمع له محبته والاستعانة به.

فالأقسام أربعة:

- محبوب لنفسه وذاته، مستعان بنفسه. فهذا أعلى الأقسام، وليس ذلك إلا لله وحده، وكل ما سواه فإنما ينبغي أن يحب تبعا لمحبته، ويستعان به لكونه آلة وسببا.
- الثاني: محبوب لغيره ومستعان به أيضاً، كالمحبوب الذي هو قادر على تحصيل غرض مُحبه
- الثالث: محبوب مستعان عليه بغيره
- الرابع: مستعان به غير محبوب في نفسه.

فإذا عرف ذلك تبين مَن أحق هذه الأقسام الأربعة بالعبودية والاستعانة، وأن محبة غيره واستعانته به إن لم تكن وسيلة إلى محبته واستعانته، وإلا كانت مضرة على العبد، ومفسدتها أعظم من مصلحتها، والله المستعان وعليه التكلان.

الشيخ: نعم هذه خلاصة ماجاء في هذا الباب، أن كل الأسباب والمطالب والإرادات كلها ترجع إلى ما يتعلق بالله، وإلى ما يتعلق بالمخلوق؛ فمن تعلق بالله؛ تعلق قلبه بالله وطمعه بالله ورغبته وخوفه ورجاؤه فإنه يحصل على مطلوبه بلا شك، لأن الله وعد بذلك أن من استعان به واكتفى به وتوكل عليه وتاب إليه أنه يكمل له أموره ويعطيه مطلوبه، وأما العكس وهو من يتعلق بالمخلوقين فإن الله يكله إليه، وفي الحديث « من تعلَّق شيئًا وُكِلَ إلَيه» ، فعلق قلبك بالله دائما وأبدا وارغب إلى الله دائما وأبدا، وأما المخلوق فإنما هو آله بيد الله، يسخرها إما لك وإما عليك، مادام كذلك فالأمر كله راجع إلى الله عز وجل لا تخف من غيره ولا ترج غيره سبحانه وتعالى.

المتن: الباب السابع: في أن القرآن الكريم متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه.

الشيخ: نعم، القرآن كما قال تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢] ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾ [فصلت: ٤٤] للذين آمنوا ﴿هُدًى﴾ إلى الحق ﴿وَشِفَآءٌ ۖ﴾ من الأمراض الحسية والمعنوية؛ وأشد ذلك مرض القلوب،المرض على قسمين:

- مرض القلب
- مرض الجسم

مرض الجسم أخف من مرض القلب فالقرآن هو الذي يعالجك من هذه الأشياء، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت: ٤٤] يعني صمم لا يسمعونك،﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤]، أنت لما تنادي واحد من مكان بعيد لا يسمعك، ولو سمعك ما يفهم شيء من البعد، فهذا مثل المعرض عن القرآن مثل الذي يُنادى من مكان بعيد ما يسمعك، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧] ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ وهي القلوب وهذا أهم شيء، نعم فيه شفاء للأبدان ولذلك فيه الرقية، يُرقى

المصاب والمريض والملدوغ بالقرآن فيشفى بإذن الله؛ولكن شفاء القلوب أنفع وأقوى، فهو شفاء للقلوب وشفاء لما في الصدور يشفي من الهموم والوساوس والأحزان، يشفي من الشبهات والأوهام، يشفي من كل ما يعرض للقلب من العوارض التي تصده، القرآن هو الشفاء.

المتن: الباب السابع: في أن القرآن متضمن لأدوية القلب، وعلاجه من جميع أمراضه.

الشيخ : من جميع أمراضه الحسية والمعنوية.

المتن: قال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾ [يونس: ٥٧]

الشيخ: هذا هو القرآن فيه موعظة

المتن: وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

الشيخ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾ من هنا ليست تبعيضية؛ لأن القرآن كله شفاء فليس بعضه شفاء وبعضه لا؟ لا، فمن هنا بيانيه، وليست تبعيضيه ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ ﴾ للقلوب هذا أهم شيء، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢ ﴾ خص المؤمنين بذلك، أما غير المؤمن فلا ينفعه القرآن﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢ ﴾ لأنهم إذا سمعوه يعرضوا عنه، ويكفروا به فيخسرون وهذا من العجب أن القرآن يكون ربح ويكون خسارة ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ ﴾ يتساءل المنافقون بينهم ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ ﴾ [التوبة: ١٢٤ – ١٢٥]

المتن: وقد تقدم أن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات .

الشيخ: الشبهات وذلك بالوساوس والأوهام والكفر والشرك والاعتقاد الباطل؛ هذه شبهات وأمراض شهوات؛ كأن يحب الخمر، يحب الزنا، يحب المعاصي، يحب السرقة، هذه أمراض شهوات، وأمراض الشبهات أشد من أمراض الشهوات .

المتن: وقد تقدم أن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات. والقرآن شفاء للنوعين.

الشيخ: شفاء للنوعين شفاء من أمراض الشبهات وشفاء من أمراض الشهوات، فالقلب الذي يميل إلى المعاصي والمحرمات هذا مريض شهوة، والذي يميل إلى الكفر والنفاق والشرك هذا مريض شبهه، هذا أشد.

المتن: والقرآن شفاء للنوعين ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك.

الشيخ: علاج مرض الشبهات بالبراهين والأدلة التي توضح الحق من الباطل والهدى من الضلال هذا دواء الشبهات.

المتن: ففيه من البينات والبراهين القطعية.

الشيخ: البراهين القطعية: كل ما في القرآن فهو قطعي ليس فيه شيء ظني كما يقوله المعتزلة ويقسمونه إلى براهين قطعية وأدلة ظنية؛ لا، القرآن وكلام الرسول ﷺ كله قطعي ما فيه شيء ظني لا في العقائد ولا في المعاملات لأنه كلام الله وكلام الرسول ﷺ.

المتن: ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين و الآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن.

الشيخ: أعظم كتاب جاء من الله عزوجل هو القرآن وهو مهيمن على ما قبله من الكتب، حاكم عليها، مبين لما دخلها من التحريف؛ تحريف اليهود والنصارى، فالقرآن هو أعظم كتاب طرق العالم، ونزله الله على هذا الرسول لهذه الأمة المحمدية؛ فهو أكبر نعمة منَّ الله بها على هذه الأمة بعد بعثة الرسول ﷺ؛ فالرسول أفضل المرسلين والقرآن أفضل الكتب، فهذه نعمة عظيمة عند المسلمين ؛ لكن يجب عليهم أن يتدبروها ويتأملوها، ما هو بمجرد الحفظ والتلاوة وتزيين الصوت؟ لا، مع التدبر لمعانيه والعمل بما فيه، فيهتدي الإنسان بهذا، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] من كل الصفات والأخلاق والأديان، كل ماهو قيم فهذا القرآن يهدي إليه ويرشد إليه.

المتن: وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين و الآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن.

الشيخ: متضمن لكل هذا المطالب العالية، متضمن لبيان التوحيد والنهي عن الشرك وإثبات الأسماء والصفات لله عز وجل، ومتضمن للمعاد يعني يوم القيامة والبعث والنشور، كل هذا في القرآن، وتتضمنه سور الفاتحة، فاتحة الكتاب التي هي أم القرآن، ففيها هذه المطالب كلها هي في الفاتحة، فالقرآن مفصل لها ومبين لها؛ ولذلك تسمى أم القرآن.

المتن: وإثبات المعاد والنبوات.

الشيخ: النبوات يعني الرسالات، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر، كل هذا في القرآن، فالإيمان بالله يشمل الإيمان به ربا وإلها ومعبودا، ويشمل الإيمان بأسماءه وصفاته، فالذي يؤمن بالله ولا يؤمن بأسماءه وصفاته هذا لم يؤمن بالله عز وجل، يؤمن برب ليس له أسماء ولا صفات؟! هذا ما يكون أبدا، هذا ناقص، هذا عدم، فلابد من الإيمان بأسماءه وصفاته لأنها صفات الكمال، والدالة على أفعاله سبحانه وتدبيراته في هذا الكون هي الأسماء والصفات.

- كذلك الإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده واختارهم لتبليغ رسالته.

- الإيمان بالملائكة الذين هم أيضا واسطة بين الله وبين الرسل، يبلغون الرسل ما أرسلهم الله به إليهم، والرسل يبلغون البشر ويأمرونهم وينهونهم، فلابد من الإيمان بالله وملائكته.

- وكتبه التي أنزلها الله على الرسل، كتبه السماوية الإلهية، التوراه والإنجيل والقرآن وصحف إبراهيم وموسى، زبور داوود، منها ما سماه الله لنا ومنها مالم يسمه لنا،

- واليوم الآخر: البعث والنشور والجزاء والحساب.

- والإيمان بالقدر خيره وشره وما يجري في هذا الكون إلا شيء قدره الله كتبه في اللوح المحفوظ وأجراه بمشيئته سبحانه وتعالى هذا كله في القرآن.

المتن: وإثبات المعاد والنبوات ، ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة.

الشيخ: كذلك مما جاء به القرآن الرد على النحل الباطلة والمذاهب الهدامة، رد على المشركين، رد على الملاحدة، رد على أهل الضلال بالبراهين القطعية التي تدحض ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] هذا في القرآن.

المتن: وإثبات المعاد والنبوات، ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن فإنه كفيل بذلك كله.

الشيخ: نعم وهذا موجود في سورة الفاتحة إجمالا وفي القرآن تفصيلا؛ لكن يحتاج إلى تدبر وإلى تفهم لهذه المقاصد وهذه المطالب.

المتن: مثل القرآن فإنه كفيل بذلك كله متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها.

الشيخ: نعم ما فيه أتم من القرآن بيانا وتوضيحا، ما أتم من القرآن، وشمولا وإحاطة، ما في كتاب أشمل من القرآن.

المتن: فإنه كفيل بذلك كله متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها وأقربها إلى العقول وأفصحها بيانا، فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك، ولكنَّ ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه.

الشيخ: لكن ذلك الذي هو الوقوف على هذه المعاني العظيمة موقوف على فهم القرآن، ماهو بحفظ القرآن فقط، فإذا فهم القرآن عرف هذه المطالب العظيمة، أما من يقرأه مجرد قراءة دون فهم هذا ما يحصل له المقصود.

المتن: ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه فمن رزقه الله ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه، كما يرى الليل والنهار.

الشيخ: من وفقه الله لفهم ذلك Hدرك الحق من الباطل لأنه يسير على هدى وعلى نور وبرهان وبيان.

المتن: فمن رزقه الله ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه، كما يرى الليل والنهار وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم بين علوم لا ثقة بها، وإنما هي آراء وتقليد، وبين ظنون كاذبة لا تغني من الحق شيئا، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها، وبين علوم صحيحة قد وعَّروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها، فهي: "لَحْمُ جَمَلٍ غَثّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ، لا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، ولا سَمِينٌ فَينتقلُ".

الشيخ: الجهمية والمعتزلة والأشاعرة بنوا عقائدهم على البراهين العقلية اللي يسمونها علم المنطق، المقدمات والنتائج وعلم الكلام لأنه يفيد اليقين، أما القرآن فهو يفيد الظن لأنه سمعي دليل سمعي، عندهم فرق بين البرهان العقلي والدليل السمعي، السمعي يفيد الظن عندهم وأما البرهان العقلي اللي هو علم المنطق والجدل هذا يفيد اليقين عندهم، وهذا على العكس، القرآن هو اللي يفيد اليقين وهو الذي يفيد البراهين، وأما هذه الجدليات وعلم الكلام فهي التي تفيد الظن، وتفيد الكذب أحيانا كثيرا فلا خير فيها، والله أغنانا عنها، عن تركيباتها بالقرآن الكريم.

المتن: وعلم أن ما عداه من كتب الناس

الشيخ: كتب الناس أي ما ألفه الناس، أما ما كان من القرآن والسنة هذه براهين قطعية.

المتن: وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم بين علوم لا ثقة بها، وإنما هي آراء وتقليد، وبين ظنون كاذبة لا تغني من الحق شيئا، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها، وبين علوم صحيحة قد وعَّروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها، فهي: "لَحْمُ جَمَلٍ غَثٌّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ، لا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، ولا سَمِينٌ فَينتقلُ".

وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريرا وأحسن تفسيرا، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد.

الشيخ: براهين المنطق اللي يقولون صعبة، جبل وعر كما يقول عليه لحم جمل غث، لا سمين فيُنتقى ولا سهل فيُرتقى، فلا يشتغل الإنسان بعلم الكلام وعلم المنطق، يشتغل بالقرآن، يتفهم القرآن، يتدبر القرآن، يوفر على نفسه التعب، ويضمن لنفسه النتيجة، أما ذاك مثل الذي يمشي على سراب، تشوف السراب على القيعان تحسبه بحور، تروح له تريد تشرب ولا جيت وما فيه شيء، ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾[النور: ٣٩] هذا السراب، هذه هي علوم المنطق والكلام، سراب، يقولون هذه براهين عقليه وهذه قواعد منطقيه وهذه وهذه... ويتعبون أنفسهم، وسيأتيكم كلام الرازي وما قاله في آخر حياته.

المتن: وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريرا وأحسن تفسيرا، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد كما قيل:

لَوْلا التَّنَافُسُ في الدُّنْيَا لَما وُضِعَتْ كُتْبُ التَّنَاظُرِ لا المُغْنِي وَلا العُمَدُ

يُجَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمُ عُقَدًا وَبِالذي وَضَعُوهُ زَادَتِ العُقَدُ.

الشيخ: نعم، هذا كلام المعري، المغني والعُمَد هذه من كتب علماء الكلام.

المتن: لَوْلا التَّنَافُسُ في الدُّنْيَا لَما وُضِعَتْ كُتْبُ التَّنَاظُرِ.

الشيخ: كتب التناظر اللي هي المناظرة عند المتكلمين، وعلم الجدل يسمونه، كله ما تحته شيء تعب بلا فائدة.

المتن:

لَوْلا التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا لَمَا وُضِعَتْ كُتْبُ التَّنَاظُرِ لا المُغْنِى وَلا الْعُمَدُ

يُحَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمُ عُقَدًا وَبِالذي وَضَعُوهُ زَادَتِ العُقَدُ.

الشيخ: صح، الكلام هذا صحيح في وصف كتب علماء الكلام أنها زادت العقد ما حللت العقد، الذي يحلل العقد ويبين الحق هو القرآن الكريم؛ لكن كما قال الله جل وعلا ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤] ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦ – ٣٧]

اللي يعرض عن القرآن إلى علم الكلام وعلم المنطق هذه عاقبته، وسيأتيكم إعتراف بعض أساطينهم أنه توصل إلى العجز وأن ما عمله في حياته كله تعب بلا فائدة.

المتن: يُحَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمُ عُقَدًا وَبِالذي وَضَعُوهُ زَادَتِ العُقَدُ

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك، والفاضل الذكى يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك، ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى، والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين المتشككين الشاكين، الذين أخبر الواقف على نهايات أقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم، حيث يقول:

الشيخ: هذا كلام الرازي وهو من أقطاب المتكلمين، إعترف في النهاية أنه ما حصل على شيء مع طول تعبه وجهده، وأنه خلى القرآن.

المتن: الذين أخبر الواقف على نهايات أقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم، حيث يقول:

نِهَـايَةُ إِقْـدَامِ الْعُقُـــولِ عِقَـــالُ وَأَكْثَرُ سعْيِ الْعَالَمِـــــينَ ضَلاَلُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا وَحَاصِلُ دُنْيَـــــانَا أَذًى وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمـرِنَا سِوى أَنْ جَمَعْنَا فِيه قِيلَ وَقَالوا

الشيخ: ولا تحته طائل ولا فائدة، يقول ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وأقرأ في النفي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾[الشورى: ١١] ، خلاص.

المتن: لقد تأملت الطرق الكلامية،

الشيخ: يقول الرازي كذا وهو من أئمتهم.

المتن: لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تُروى غليلا. ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن.

الشيخ: طريقة القرآن في البيان هي المريحة وهي الواضحة ولا فيها تكلف ولا شيء، أقرب الطرق.

المتن: ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾[فاطر: ١٠] وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ۝١١٠﴾[طه: ١١٠] ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

الشيخ: هذه خاتمته يقول ما حصلنا على شيء إلا جمعنا قيل وقالوا، قالوا فلان وقال فلان، رد فلان على فلان، وفلان قال كذا، وإيش الفائدة ؟ وهو على اسمه علم الجدل، ما فيه فائدة.

المتن: فهذا إنشاده وألفاظه في آخر كتبه، وهو أفضل أهل زمانه على الإطلاق في علم الكلام والفلسفة.

الشيخ: هو أقدرهم على علم الكلام والفلسفة، إعترف أن ما فيها فائدة وأن الفائدة في القرآن ولعلها تكون خاتمة له إن شاء الله.

المتن: وكلام أمثاله في مثل ذلك كثير جدا قد ذكرناه في كتاب الصواعق وغيره.

الشيخ: الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطله وهو كتاب عظيم ولكنه مفقود، وُجد مختصره للمَوصِلي ووُجد بعض الأصل لكنه ليس كاملا.

المتن: قد ذكرناه في كتاب الصواعق وغيره وذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء "آخر أمر المتكلمين الشك، وآخر أمر المتصوفين الشطح"

الشيخ: آخر أمر المتكلمين الشك ما يصلون إلى نتيجة، يبقون في شكهم لأنهم ما طلبوا الحق من القرآن طلبوه من علم الكلام، علم الكلام ما يهدي شيء، كل واحد له رأي، كل واحد له قول، كل

واحد يرد على الثاني ولا فيه نتيجة، أما المتصوفة فآخر أمرهم الشطح أنهم يخرجون عن الحق إلى الباطل.

المتن: والقرآن يوصلك إلى نفس اليقين في هذه المطالب التي هي أعلى مطالب العباد، ولذلك أنزله من تكلم به، وجعله شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين.

الشيخ: هذا هو القرآن العظيم الذي بين أيدينا، وفي الحديث: «مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ» .

المتن: وأما شفاؤه لمرض الشهوات.

الشيخ: إنتهى من شفاء القرآن لمرض الشبهات وأن الشبهات ما تُشفى بكلام المتكلمين وقواعد المنطق والجدل؛ وإنما تشفي بالقرآن الكريم.

المتن: وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده ويرغب عما يضره، فيصير القلب محبا للرشد.

الشيخ: القرآن ينهى عن الفحشاء والمنكر﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ ﴾[النحل: ٩٠] كل أوامر القرآن عدل وإحسان، و ينهي عن الفحشاء والمنكر، والبغي على الناس والتطاول على الناس، القرآن ينهى عن هذه، هذه من الشهوات،القرآن حسمها في نهيه عن ذلك، وفي المواعظ التي في القرآن وذكر العذاب وذكر النار وذكر الحساب يوم القيامة، فمن تدبر هذه الأشياء ترك هذه الشهوات المحرمة.

المتن: فيصير القلب محبا للرشد مبغضا للغى.

الشيخ: كما أنه فيه من النهي عن الشهوات المحرمة ففيه أيضا التشويق إلى الجنة وما فيها من النعيم وما فيها من السرور وما في طاعة الله من الراحة والطمأنينة.

المتن: فيصير القلب محبا للرشد مبغضا للغي فالقرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق، كما أن الطفل لا يقابل إلا اللبن.

وَعَادَ الْفَتَى كَالطِّفْلِ لَيْسَ بِقَابِلٍ

سِوَى المَحْضِ شَيْئاً وَاسْتَرَاحَتْ عَوَاذِلُهْ

فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه، ويؤيده ويفرحه، ويسره وينشطه، ويثبت مُلكه، كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه، وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربى؛ فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، فكما أن البدن محتاج إلى أن يزكو بالأغذية المصلحة له، والحمية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه، ومنع ما يضره، فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو، ولا يتم صلاحه إلا بذلك.

الشيخ: وغذاء القلب هو بالوحي المنزل، وغذاء البدن هو بالطعام والشراب.

المتن: فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو، ولا يتم صلاحه إلا بذلك ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن، وإن وصل إلى شيء منه من غيره فهو نزر يسير لا يحصل تمام المقصود، وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين، فحينئذ يقال: زكا الزرع وكمل.

ولما كانت حياته ونعيمه لا تتم إلا بزكاته وطهارته لم يكن بُد من ذكر هذا وهذا، فنقول: الباب الثامن: في زكاة القلب.

الشيخ: يكفي نقف عند هذا.